

عند الكسائي والفراء وثعلب، ومجموع هذه الآراء قد اتسع فيها القدماء فأسموها مذهب الكوفيين، وتجاوز المحدثون هذا الحد فأسموها مدرسة، وهي لا تعدو أن تكون نظراً آخر لا ينقض الأصول بل يعلق بالفروع. وما قيل في مصادر الكوفيين وأساليبهم في النظر لا يبتعد كثيراً عما سلكه البصريون، وليس الاتساع في السماع عند هؤلاء، والتشدد في القياس لدى الآخرين يدفعنا إلى القول إن علم هؤلاء جديد يؤلف «مدرسة» يختلف عن علم الآخرين و«مدرستهم».

ولو وقفنا على «مسائل الخلاف» التي جمعها أبو البركات الأنباري في «الإنصاف» لوجدنا أن الاختلاف في الفروع قبل كل شيء ثم الاختلاف في التأويل والتعليل.

وإذا كان لنا، نحن المعاصرين، أن نقف على علم الفريقين ناقدين فلنا أن نعين حقاً نجده عند أولئك، وننكر باطلاً نجده عند الفريقين، وليس لنا في هذا العصر أن نتعصب في هذا البحث العلمي التاريخي لأيٍّ من الفريقين^(١).

ومن العلم أن نقول: إن الدرس النحوي قد هدانا إلى أن للكوفيين مصطلحاتهم الخاصة وهذه المصطلحات نجدها في كتبهم نحو «معاني القرآن» للفراء وسائر كتب النحو الأخرى فقد أشار المصنفون إلى

(١) درج الدارسون في عصرنا على ضرب من البحث العلمي فاندفعوا إليه بحماسة عارمة قد يكون مصدرها التعلق بما هو قديم، وقد يكون من باب الإتيان بالجديد، وبريق الجديد قد يبهر النفوس ويُعشي العيون. لقد أخذوا أنفسهم بهذا فألفوا في «مدرسة البصرة» وألفوا في «مدرسة الكوفة» واندفعوا بحماسة شديدة إلى استجلاء فضائل كل من هذه وتلك، فإن لم يجدوا في بعض الأحيان أعانهم ضرب من الخيال تولده الحماسة العارمة إلى الوقوف على فضائل «متخيلة». ولو انفكوا من هذا الأسلوب الدخيل لوجدوا أن للقدماء فضائل كثيرة لا تنفي أن يكون لهم نظر غير سديد جاء به اجتهاد قاصر.